مقدّمـــة

اتّخذت ردود فعلِ المثقّفِ العربيّ نحو الحضارة الغربيّةِ في القرن التاسع عشر أشكالاً مختلفة لعلّ أبرزها الاتجاه التوفيقي الذي دعا إلى استيعاب الحضارة الغربيّة وتبنّي العناصر الإيجابيّة التي تتّفق مع القيم العربيّة الإسلاميّة، وقد مثّل هذا الاتجاه إنتاجُ كثير من روّاد النهضة العربيّة في ذلك القرن، هذا الإنتاج الذي عكس وَعْيَ الإنسان العربي لنفسه ممثّلا في استيعابه للتّراث، ثمّ وَعْيَهُ للآخرين ممثّلا في الانفتاح على الفكر الغربيّ. وقد بدأت محاولات التوفيق منذ الربع الأول من القرن الماضي وبرزت آثارها جليّة في كتابات الطهطاوي ثمّ تأصّل هذا الاتجاه التوفيقي على أيدي آخرين، ولعلّ أحمد فارس الشدياق يقف في طليعة هؤلاء، فقد عكف الشـــدياق على دراسـة اللغـة العـربية وأحبّهـا حبّـاً ارتقى إلى مستـوى «العِشْق الروحي»[1]، ثمّ فتح الأبواب على مصاريعها لكلّ التيارات الوافدة من الغرب، فحاول استيعاعبها واتخذ لنفسه موْقفاً منها.

وتعدّ آثار الشدياق شواهدَ ناطقةً على مكانته تكشف عن دوره البارز في النهضة

---

(١) قال الشدياق في سرّ الليال: «فإن يكن المتقدّمون قد اشتغلوا بهذه اللغة فإنّي قد عشقتها عشقـاً، وكلفت بهـا حتّى صرت لها رقاً. فلم يشغلني عنها همّ... فكانت أنسي عند الوحشة، وسلواني عند الحزن، وصفوي عند الكدر، وسروري عند الشجن».

اقتبسها الدكتور محمدأحمد خلف الله عن «سرّ الليال في القلب والإبدال: ص٢». انظر كتاب خلف الله، أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغويّة والأدبية، محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية، معهد الدراسات العربية العالية (جامعة الدول العربية)، القاهرة، ١٩٥٥: ٩٣.

العـربية، وتـظهـر ملامـحَ من شخصيته الأدبيّة والفكريّة؛ ففضلاً عن المضامين الاجتماعية والفكريّة التي تبرزها كتبه «الساق»و «كشف المخبّا»، و «الواسطة»، تقف آراء الشـدياق اللغويّة والأدبيّة في «الساق» نفسه، وفي «الجاسوس» و «سرّ الليال» أدلّـة ناصعـة على إسهاماته في حركة الإحياء التي نهض بها الروّاد في القرن التاسع عشر. وإذا كانت آثار الشدياق التي بين أيدينا تقدّم عَلَمَاً في الكتابة الفنية تذكّر في كثير من صحائفها بالترسُّل العربي في عصور ازدهاره، وعَلَما في البحث اللغوي يُذكّر بعلماء اللغة والنحو، وعَلَما في المقالة الصحفية يُفْصح عن قدرة كبيرة في استثمار المعرفة باللغات الأخرى وفنونها الأدبيّة؛ فإنّها تكشف أيضاً عن قدرة واضحـة في مجـال النّظم، غير أنّ الأعمال التي درست الشدياق لم تعالج هذا الجانب من إبداعه بالعمق الذي تناولت فيه القضايا اللغوية والفكريّة.

وعلى الرغم مما حَظِيَ به الشدياق من شُهْرة، فإنَّ معظم الذين تناولوا آثاره بالـدراسة والنّقد قد أغفلوا الإشارة إلى عمل على جانب كبيرٍ من الأهمية يتّصل بموضوع الإبداع الشعري عند الشدياق: وهو «مقدمة ديوان أحمد فارس»، وقد طبعت هذه المقدّمة في استنابول سنة ١٨٦٠م[1] وتحتفظ مكتبة الأوقاف العامة في بغداد بنسخة خطيّة وهبها المؤلّفُ إلى نعمان الآلوسي[2] في استانبول سنة ١٣٠١هـ.

وتنبع أهميّة هذه المقدّمة من أنها تركز الانتباه في العملية الشعرية مِمَّا يجعلها قطعة قَيِّمَة في نقد الشعر في القرن التاسع عشر، تسعف الباحث على فهم أشمل للمحاولات النقدية الأولى، وتكشف له عن ثقافة الناقد في هذا القرن، كما أنّها تطرح مجموعة من المسائل اللغوية ذات الصلة الوثيقة بالعملية الشعرية. وإذا كان

---

(١) لعلّ عماد الصّلح هو أوّل من لفت الانتباه إلى هذا العمل، وأفاد منه في كتابه: أحمد فارس الشدياق: آثاره وعصره، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠: ٢٦٤.

(٢) هو نعمان بن محمود بن عبدالله الآلوسي، فقيه وباحث، ولد في بغداد سنة ١٨٣٩. زار الآستانـة سنـة ١٣٠٠هـ، ثم عاد إلى بغـداد ليعكف عل التدريس والتأليف، توفي سنة ١٨٩٩. انظر: الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت ١٩٨٠: ٤٢/٨.

الشدياق قد هدف من تأليف بعض كتبه اللغوية إلى مناقشة اللغويين القدماء وبيان أخطائهم اللغوية والمنهجية تمهيداً لفكرته المُعْجمية[1]، فإنّه في هذه المقدّمة يُلمّح على مناقشة الشعراء وبيان أخطائهم اللغوية والمعنوية، ويبدو أنّ المؤلّف أرادَ أن يستدرك بعضَ الأمورِ التي لم يذكرها في كتبه الأخرى إلاّ لِمَاما، ويحاول هنا أنْ يعرضَها بصورة أشمل.ولعلّ أبرز هذه المسائل: الضرورات الشعرية، تعرّض لها بشكل مقتضب في «الجاسوس»[2]، ثمّ ناقشها هنا مناقشة مطوّلة، ولعلّ الشدياق في هذه المسألة قد حاز قَصْب السَّبَق، بل يُعَدُّ سابقاً للسيد محمود شكري الألوسي (١٨٥٧ ـ ١٩٢٤) صاحب «الضرائر وما يسوغ للشاعر دون النّاثر»، فقد فَرَغَ الألوسيُّ من تأليف كتابه هذا سنة ١٣٢٠هـ[3]. ورغم أنّ الألوسيَّ لم يُشِر في كتابهِ إلى مقدمة الشدياق، فيمكن القول إنّه تأثّر بالشدياق، لأنَّ معظم الشواهد الشعرية التي وردت في مقدمة الشدياق كُرِّرتْ في كتاب الألوسيِّ؛ ومن جهة أخرى فإنَّ هذه المقدِّمة أصبحت من ملكية النعمان الألوسي الذي احتفظ بها في مكتبته، ولعلّ صاحب الضرائر قد اطلّع عليها.

ومُقَدِّمة الشدياق هذه أُنْمُوذج طريف لمقدّمات الشعراء لدواوينهم، تفيد الدارس للشعر وتقرّب فهمه له، فضلاً عن إفساحها المجالَ واسِعاً للمقارنة بين تقييم الشاعر لشعره أو لشعر غيره وبين إنتاجه الخاص، وزيادةً على ذلك فإنَّ هذه المقدِّمةَ الطويلةَ تُشير بوضوحٍ إلى ضخامة الديوان الذي بلغ كما يقول بعضهم ٢٢ ألف بيت من الشعر، كما تؤكد أنّ الشدياق قد فرغ من ديوانه ودوّنه[4].

---

(١) الجاسوس على القاموس، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ١٢٩٩هـ: ٣ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: ١٢١، ١٢٢، ١٨٢، ٢٩١، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٣٤، ٣٤٢، ٣٤٣، ٤٤٥، ٤٨٢.

(٣) الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر، شرح محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفيّة، مصر، ١٣٤١هـ: ٣٣٤.

(٤) ذكر هذا الديوان جرجي زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، منشورات =

ونظراً لأهميَّةِ هذه المقدّمة، فإنّ العمل الحاليَّ يهدفِ إلى تحقيقها، محاولاً ضبط النّص، مخرّجاً الشواهد الشعريّة رادّاً اقتباساتِ المؤلِّف إلى أُصُولها. ولقد رأيت أنَّه من المفيد التمهيد لهذه المقدّمة بنبذة موجزة لسيرة المؤلِّف وآثاره، ثمَّ أتبعت ذلك بحديث موجزٍ عن المقدّمة ذاتها: مصادرها ومنهجها. . ثم انتقلت إلى عَرْضٍ لِأَبْرَز المسائل اللغويّة والأدبية التي تطالعنا بها هذه المقدّمة. واستكمالاً للفائدة فقد أتبعت النصَّ المحقَّقَ بفهارِسَ للأعلام والأماكن والكتب والقوافي ثم قدَّمت ثَبْتاً بالمصادر والمراجع المعتمدة في إخراج النص.

وما اعتصامي وتوفيقي إلّا بالله، ، ،

= دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت): ٢/١١٣. وقد حاولت التعرّف إلى مكان وجود هذا الديوان من خلال استعراض العديد من فهارس المخطوطات فلم أهتد إلى ذلك.

المؤلـف:

مؤلِّف هذه المقدّمة هو أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق[1]. ولد في حارة الحدث بالقرب من بيروت سنة ١٨٠١م، تعلّم في كتّاب القرية، وتدرّج في

---

(١) حول سيرته وجهوده في اللغة والأدب انظر: جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق: ٢/١٠١-١١٤، وأنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت ط٣، ١٩٨٠: ١٣٩ - ١٨٠، وحنّا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٨٥: ٨٨-١١٢، وبولس مسعد، فارس الشدياق، القاهرة، ١٩٣٤، ومارون عبود، أحمد فارس الشدياق: صقر لبنان، دار مارون عبّود، بيروت، ط٢، ١٩٧٥، ومحمد أحمد خلف الله: أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والأدبية، ومحمد عبد الغني حسن، أحمد فارس الشدياق، الدار المصرية للتأليف والترجمة، توزيع مكتبة مصر، القاهرة (د.ت)، وعماد الصلح، أحمد فارس الشدياق، وشفيق جبري، أحمد فارس الشدياق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، وعمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر، ط٨، ١٩٧٣: ١/١٠٠ - ١١١، وعبد اللطيف شرارة، معارك أدبية قديمة ومعاصرة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤: ١٢٠ - ١٣٤، ورياض قاسم، اتجاهات البحث اللغوي الحديث في العالم العربي: لبنان في القرن التاسع عشر، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٢: ٣٠١ - ٣١٠، ويوسف مسلم أبو العدوس، قراءة في جهود أحمد فارس الشدياق اللغوية والمعجمية، أبحاث اليرموك، المجلد الخامس، العدد الأول (١٩٨٧): ٧-٤٠

See also: P.J. Vatikiotis, The History of Egypt (Baltimore:

The Johns Hopkins University Press, 1980), pp. 180-182;

Albert Hourani, Arabic Thought in the liberal Age: 1798-1939 :london: Cambridge University Press, reprented 1984), pp. 98-99; Trevor J. le Gassick, Ma jor Themes in Modern Arabic Thought (Ann Arbor: The University

= of Michigan Press, 1979), pp. 11-15;

اكتساب المعرفة وبرع في النساخة فاستدعاه **الأمير** حيدر الشهابي[1] لينسخ له ما كان يجمعه من وثائقَ ومخطوطاتٍ لإخراج كتابه الذي طبع فيما بعد باسم «الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان»، وبعد ذلك قصد الشدياق أخاه أسعد الذي كان يعمل عند أحد الأعيان. ولكن نتيجة لظروف اقتصادية ترك الشدياق أخاه وعمل بائعاً متجوّلاً، ودفعه الفشل إلى ممارسة عِدَّة أعمال. وقد تأثّر الشدياق في هذه الفترة بعاملين هما: قسوة الظروف الماديّة، وما لحق بأخيه أسعد من أذى نتيجة تحوّله إلى المذهب البروتستانتي. يغادر الشدياق لبنان إلى مصر سنة ١٨٣٦ فيمكث مدّة قصيرة في الإسكندرية ليغادر بعدها إلى مالطة حيث يدرس الإنجليزية ويتعمَّق في دراسة البروتستانتيَّة، ثم يعود سنة ١٨٢٨ إلى مصر ليعمل في الوقائع المصرية مترجماً ومصحِّحاً. وبعد فترة وجيزة نرى الشدياق في مالطة يعمل على تعريب النصوص الدينية ويشرف على مطبعة «جمعية نشر المعارف المسيحية» ويقوم زيادة على ذلك بممارسة التدريس. وضع الشدياق أثناء وجوده في مالطة بعض الكتب المدرسية مثل «اللفيف في كلّ معنى ظريف»، وترجم كتاب «شرح طبائع الحيوان». وقد قام في هذه الفترة ببعض الزيارات إلى لبنان وتونس وباريس، إلّا أنّه غادر مالطة سنة ١٨٤٨ إلى لندن ليساهم في ترجمة جديدة للكتاب المقدَّس تحت إشراف الدكتور لي. ثمَّ يغادر بعدها إلى باريس ليعيش هناك حياة «حرّة طليقة» أكثر من سنتين ألّف في نهايتها كتابه الشهير «الساق». وبعدها يعود إلى لندن ليضع «كشف المخبا» ثُمَّ يغادر إلى تونس ليؤسِّس صحيفة «الرائد التونسي» ولكنه لم يتولّ مسؤولية تحريرها[2]، وفي تونس يعتنق فارس الشدياق الإسلام.. ثم يغادر إلى العاصمة العثمانية ليؤسس جريدة «الجوائب» المشهورة سنة ١٨٦١ التي ساهمت في إحياء التُّراث العربي، وتأصيل فنّ المقالة الصحفية، وعندما

Ibrahim Abu lughod, Arab Rediscovery of Europe: A study in Cultural Encounter (princton, N. J. : Princton = University Press, 1963), pp. 120-122, 126-130; C. Brockelmann, Encyclopedia of Islam, Vol. I, 1908, pp. 67-88

(١) انظر هوامش التحقيق.

(٢) انظر في مناقشة ذلك: عماد الصلح: ٨٥ ـ ٨٧.

عطلت الجوائب سنة ١٨٨٤ غادر الشدياق إلى مصر زائراً، ثُمَّ عاد إلى الآستانة ومكث فيها إلى أنْ توفّي في ٢٠ أيلول سنة ١٨٨٧، وعملاً بوصيّته نقل جثمانه إلى لبنان حيث دفن في الحازمية قرب بيروت[١].

آثـــاره:

١ـ الساق على الساق في ما هو الفارياق.
٢ـ كشف المخبا عن فنون أوروبا.
٣ـ الواسطة في معرفة أحوال مالطة.
٤ـ سرّ الليال في القلب والإبدال.
٥ـ الجاسوس على القاموس.
٦ـ غنية الطالب ومنية الراغب.
٧ـ وقد جمعت مقالاته في الجوائب بمؤلّف كبير تحت عنوان: «كنز الرغائب في منتخبات الجوائب».
٨ـ وله زيادة على ذلك مجموعة من الكتب المخطوطة، وبعض الكتب المدرسية المطبوعة، وديوان شعر[٢].

---

(١) انظر: الصلح: ١٣٧، والمقدسي: ١٤٤، والفاخوري: ٤/٩٠

(٢) لعل أشمل قائمة بآثار الشدياق المخطوطة والمطبوعة هي التي أعدّها الدكتور عماد الصلح في كتاب: أحمد فارس الشدياق، إذْ أحصى له ثمانية وأربعين أثراً بين مخطوطٍ ومطبوع.